



نقدُ مبحث تاريخ التصوُّف في الحِجاز

في كتابِ (حَركة التصوُّف في الخليج العَربي)

إعداد

مركز سلف للبحوث والدراسات

جوال سلف 009665 565 412 942

 SALALFCENTER  salafcenter3@gmail.com SALALFCENTER

أولا: هاهنا نقاط ذكرها المؤلِّف يجدر بنا أن نوردها قبل البدء في المناقشة:

١ – قال عند أوَّل حاشية للكتاب قبل المقدمة: "أضفتُ إضافات كثيرةً عند نشر الكتاب لأهميتها، أو لأني لم أقف عليها إلا بعد المناقشة؛ ولذا فالكتاب مسؤولية الباحث وحده".

وهذا يعني أنَّ الباحث لم يتعجّل وقدِ استنفد جهدَه في هذه الأبواب.

٢ – وقال أيضًا: "لم أطَّلع على كتاب أرّخ لنشأة التصوُّف في الخليج؛ ولذا سألقي الضوء على نشـأة التصـوُّف من خلال تتبُّع مظاهره المتمثلة في القبور والموالد... إلخ؛ مما يعطي القارئ إلمامة بنشأة التصوف في الخليج"(١).

هنا يبيِّن المؤلف أهميةَ هذا الكتاب، وأنه متفرّد في بعض أبوابه، فهو كتاب تاريخي أيضًـا؛ لذا جعل الباب الأول منه: "بيان تاريخ التصـوف في الخليج"، كما بين منهجه أنه سيرصد الحركة من خلال المظاهر المتمثلة في القبور والموالد... إلخ.

٣– وقال في نتيجة البحث في تاريخ التصـوف في الخليج: "والمقصـود من هذا العرض: أن مظاهر التصوّف والقبوريّة وجدت مع دخول العالم الإسلامي والخليج العربي منه تحت حكم الدولة العثمانية التي تبنّت التصـوفَ وشـجَّعت عليه وقامت برعايته، وسـيأتي بيان شواهد هذا في المطلب الآتي عند الحديث عن التأثير التركي. ولعل من الشواهد أيضًا أن ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ) لما زار الحجازَ في القرن الثامن وجاور فيها لم يذكر المشاهد والأضرحة والقباب والموالد، ولم يشر إليها بأدنى إشارة؛ مما يدل على أنها حدثت بعد ذلك، أو كانت موجودة، لكنها لم تكن ظاهرة"(٢).

وها هنا يقرّر المؤلّف بوضوح أنَّ التصوفَ في الخليج عامّة والحجاز خاصة ظهر تحت حكم الدولة العثمانية، واستشـهد للحجاز خاصّـة –من باب التأكيد – بما وقع في رحلة ابن بطوطة أنه لم يذكر المشاهد والأضرحة والقباب والموالد!

ثم جعل لنفسـه مخرجًا يدلُّ على تردُّده في النتيجة التي توصَّـل إليها، حتى بعد التأكيد بالشاهد عن ابن بطوطة، بقوله عن حركة التصوّف في الحجاز: "أو كانت موجودة – أي: قبل العهد العثماني–، لكنها لم تكن ظاهرة".

---

(١) حركة التصوف في الخليج العربي (ص: ٤١).

(٢) حركة التصوف في الخليج العربي (ص: ٦٩).

ثانيًا: بيانات الكتاب

يعدُّ هذا الكتابُ من المراجع المهمَّة في بابه، ففيه رصد تاريخيٌّ لحركة التصوُّف في الخليج، كما أنَّ فيه تحليلًا ونقدًا لها.

عنوان الكتاب: حركةُ التصوُّف في الخليج العربي –دراسة تحليليَّةٌ نقديَّة–.

اسم المؤلِّف: د. عبد العزيز بن أحمد البداح.

الناشر: بدون.

رقم الطبعة: الأولى.

سنة الطبع: ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

عدد الصفحات: ٨٦٠ صفحة.

أصل الكتاب: رسالة دكتوراه قدِّمت في قسم العقيدة بكلية الدَّعوة وأصول الدينِ بالجامعة الإسلاميَّة بالمدينةِ المنوَّرة.

ثالثا: نطاق النقد في الكتاب:

تتوجه مناقشة هذا الكتاب حول تاريخ حركة التصوُّف في الحجاز.

١- النقد العام (النقد المنهجي)

من الأخطاء المنهجية التي أدَّت إلى وقوع المؤلّف في التوصّل إلى نتيجة غير صائبة: عدم الرجوع إلى كثير من المراجع الأصيلة في تاريخ الحجاز، وخاصَّة التاريخ المكّي، وعدم اعتمادها في بحثه.

فقد رجع المؤلّف إلى مراجع متأخِّرة، وذكر كثيرًا من مظاهر التصوّف التي هي في الأساس كانت موجودة وممتدة لعهود ما قبل الوجود العثماني.

نعم، لا ننكر أن بروزها وظهورها ازداد مع العهد العثماني، لكننا كذلك لا ننفي وجودها ولا نقلّل أثرها قبل ذلك.

٢- النقد التفصيلي:

سنشرع أولًا بذكر ما يتعلَّق بنشأة التصوّف في الحجاز ومظاهر بروزه في العهد الفاطميّ

والأيوبي والمملوكي، أي: ما قبل الدولة العثمانية، ثم نرجع إلى كلام المؤلف.

تاريخ البدَع عمومًا في الحجاز:

تختلِف البلدان الإسلامية في ظهور البدَع فيها، فالأمصار الكبار التي سكنها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج منها العلم والإيمان خمسة: الحرمان الشريفان، والعراقان، والشام. منها خرج القرآن والحديث والفقه والعبادة، وما يتبع ذلك من أمور الإسلام، وكان ظهور البدع بحسب البعد عن الدار النبوية؛ لذا نجد قلة البدع التي ظهرت في الحرمين الشريفين خلال القرون الثلاثة الفاضلة(١).

قال الشيخ بكر أبو زيد -في معرض حديثه عن البدع التي أُحدِثت في جبل إلال في عرفة-: مضت القرون الثلاثة الفاضلة، بل القرن الرابع كذلك، ولم يسجِّل المؤرخون وغيرهم إحداثًا في جبل إلال والموقف؛ إذ كان الأمر جاريًا على الإسلام، والسنة والسلامة"(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية عن تاريخ البدع في المدينة: "أما الأعصار الثلاثة المفضَّلة فلم يكن فيها بالمدينة النبويّة بدعة ظاهرة البتة، ولا خرج منها بدعة في أصول الدين البتة"(٣).

نشأة التصوّف في الحجاز:

يرى ابن خلدون أن نشأةَ التصوف كان مع القرن الثاني الهجري(٤)، إلا أنه لم يشتهر إلا بعد القرن الثالث(٥)، وفي القرن الثالث الهجري نشأت القبوريّة على أيدي الشيعة العبيدية(٦)، ولم يبسط سيطرة العبيديين (الفاطميين) على الحجاز إلا بعد منتصف القرن الرابع، ومنذ ذلك العهد والحجاز صار مرتعًا لهاتين البدعتين الخرافيتين.

الحجاز في عهد الدولة الفاطمية (٣٥٨-٥٦٧هـ)(٧):

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٠/ ٣٠٠-٣٠٢).

(٢) جبل إلال بعرفات تحقيقات تاريخية شرعية (ص: ٤٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٣٠٠-٣٠٢).

(٤) انظر: مقدمة ابن خلدون (ص: ٤٦٧).

(٥) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٥-٧)، مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية، إدريس محمود (١/ ٣٤).

(٦) انظر: مجموع الفتاوى (٢٧/ ١٦٢).

(٧) يُنَبّه إلى أن في المدة المذكورة لم تكن الحجاز كلها تحت سيطرة الفاطميّين، بل كان هناك صراع دائم بينهم وبين العباسيين من جهة، وبينهم وبين الأشراف من جهة أخرى، فتارة يستقلّ العباسيون بالحكم، وتارة يستقلّ الأشراف بالحكم، وتارة الفاطميّون.

عرفت الحجاز في عهد الفاطميين أعيادًا جديدة تحتفل بها علاوة على ما كانت تحتفل به من الأعياد الدينية، فعيد المولد النبوي، وعيد مولد السيدة فاطمة، ومولد السيدة خديجة والسيدة آمنة، ومولد علي والحسن والحسين، وأمثال ذلك؛ كيوم عاشوراء وآخر أربعاء من صفر، وليلة أول رجب، وليلة أول شعبان، وكذا النصف منه، وغرة شهر رمضان، وأول العام الهجري، وليالي الوقود، وهي التي تسبق شهري رجب وشعبان(١)، كلّها انتقلت إلى مدن الحجاز من الفاطميين، حيث كانوا يحتفلون بها تقليدًا لتشيّعهم لأهل البيت، وما كانت مكة تعرفها قبلَهم، إلا أنَّ اتِّباعَ أمراء مكة والمدينة في هذه الفترة للمذهب الشيعي هو ما أظهر هذه المواسم للسكّان، رغم قلّة المعتنقين لهذا المذهب في الحجاز، وذلك من خلال فرض هذه المناسبات على الناس في احتفالات جماعيّة علنية يعدُّ لها الأمراء الإعداد المناسب(٢).

وقد بلغ عدَد هذه الأعياد والمواسم غير المشروعة أكثر من عشرين عيدًا وموسمًا، وكان بعضها يحظى بعناية خاصَّة لديهم، ومنها أوّل العام الهجري، وأول شهر رمضان، والجُمع الثلاث الأخيرة من رمضان(٣).

وعرفت المدينة كذلك منذ العهد الفاطمي بدءَ بناء القباب على بعض القبور في البقيع، وازدادت تلك القباب في عهد المماليك ثم العثمانيين، وبالغ بعض سلاطين العجم في تجميل القبّة المبنية على قبر عثمان بن عفان رضي الله عنه، وعندما دخلت المدينة في حكم الدولة السعودية الأولى (عام ١٢٢٠هـ) أزيلت تلك القباب وسوِّيت القبور بالأرض؛ اتباعًا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم(٤).

ومن مظاهر انتشارِ التصوّف في الحجاز في العهد الفاطمي: اعتلاء الصوفية مراكز قيادية؛ كالقضاء والفتوى والتدريس والإمامة، فلا غرابة أن نجد نشاطهم وأعمالهم تصبح سنَّة اجتماعية في مكة والمدينة، وكان من طليعة هؤلاء الصوفية:

- علي بن عبد الله بن الحسن الهمذاني (ت ٤١٤هـ).
- هياج بن عبيد بن حسن الحطيني (ت ٤٧٢هـ).

---

(١) انظر: المواعظ والاعتبار، المقريزي (١/ ٤٩٠-٤٩١).

(٢) انظر: رحلة ابن جبير (١/ ١٠٦، ١١٧، ١١٩، ١٢٢)، أحوال المجتمع الحجازي من بداية القرن الخامس الهجري حتى نهاية النفوذ الفاطمي، د. صالح الضويحي (ص: ١٨٧).

(٣) انظر: صبح الأعشى، القلقشندي (٣/ ٥٠٥).

(٤) انظر: التاريخ الشامل للمدينة المنورة (٢/ ٤٣١-٤٣٢، ٣/ ٢٩٦-٢٩٨).

- أحمد بن أسد بن باذل الكوجي (توفي بعد ٤٦٠هـ).

وجاء في ترجمة سعد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الحافظ الزاهد أنه طاف البلاد، ثم جاور بمكة، وصار شيخًا للحرم، وكان حافظًا متقنًا فقيهًا، يزعم أنَّ له كرامات وآياتٍ، كان إذا خرج إلى الحرم ليطوفَ خلّي له المطاف، ويُقَبِّل الناس يديه أكثر مما يقبلون الحجر الأسود! ولهذا الفعل دلالته على عمق المنهج الصوفيّ في نفوس الناس، واستيلائه عليهم، كانت وفاته سنة ٤٧٠هـ(١).

ولا شكَّ أنَّ وجودَ هؤلاء الصوفية في الحرمين واعتلاءهم مراكز قيادية له أثره في سرعة انتشار أفكارهم ومناهجهم بين الناس وقابلية الناس لذلك(٢).

الحجاز في العهد الأيوبي (٥٦٧- ٦٤٨هـ):

ويبدو أنَّ مكة لم تتأثر بالأيوبيّين كما تأثرت بالفاطميين من قبل؛ لضيق المدى الذي تمتَّع فيه الأيوبيون بنفوذهم في مكة، إلا أنَّ صلاح الدين كان له بعض الأثر فيها، فقد نجح في إلغاء عبارة (حي على خير العمل) في الأذان، الذي كان مستعملا في العهد الفاطمي، وبنى في مكة دارا لضرب النقود باسمه(٣).

الحجاز في عهد المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ):

ثم دخل الحجاز تحت حكم المماليك سنة ٦٤٨هـ، وظلت البدع التي كانت في عصر الفاطميين المذكورة في كتب تواريخ مكة، بل وزيد عليها بدعٌ أخرى نقلها الرحالة والمؤرخون في عصر نشاط التأليف في التاريخ المكي، ومن صوَر البدع الجديدة: الاحتفال بالمحمل بأشكال وصور متعدِّدة، إضافةً إلى ما كان عليه الفاطميون.

الزوايا في الحجاز:

هي في الأصل "مقر لأحد الشيوخ، يستقبل فيه طلابَه ومريديه، وقد شاعت هذه الزوايا في الحجاز بسبب قدوم عدد من شيوخ الطرق الصوفيّة إليها وإقامتهم فيها، أو قدوم بعض أتباع تلك الطرق، وكان بعضهم يسمَّى باسم شيخ الطريقة نفسه، وقد كان المتردّدون عليها

---

(١) ينظر: العقد الثمين (٣/ ١٧).

(٢) انظر: أحوال المجتمع الحجازي من بداية القرن الخامس الهجري حتى نهاية النفوذ الفاطمي، د. صالح الضويحي (ص: ٢٣٤).

(٣) انظر: تاريخ مكة للسباعي (١/ ٢٨٣).

يقيمون الطقوس المقرّرة في طريقتهم، ويستمعون إلى دروس مختلفة يلقيها شيوخهم، ويقرؤون في الكتب التي ألفها شيوخهم الأوائل، وفي الغالب كان لكل زاوية مكتبة تحتوي بعضًا من الكتب الدينيّة وبعض كتب التصوّف، وكان كثيرًا ما ينفق الشيخ على زاويته من موارده الخاصّة، أو من وقف إذا كانت الزاوية لها أوقاف"[1].

وقد تكاثرت التكايا والزوايا الصوفية في الحجاز في العهد المملوكي، وكانت التكايا في الحجاز في عهد المملوكيين ترسل إليها الهبات والصدقات من صرّة أوقاف أصحابها في مصر. وكان الواقف يلتزم في بعض الظروف بإنشاء تكيَّتين في إقليم الحجاز: واحدة في مكّة، والأخرى في المدينة، وكان يلحق بكل تكيَّة مجموعة من الصوفيّة تقر القرآن. ويشترط في كل تكية وحسب شروط الواقفين توفير من يقوم من المدرّسين بتعليم هؤلاء الطلاب من المتصوّفة وغيرهم.

وكان عدد الصوفيّة يختلف من تكية إلى أخرى، حيث كانت التكية الواحدة تضم ما بين عشرة إلى خمسين صوفيًّا. ومن أشهر التكايا في الحجاز: تكية السلطان المملوكي جقمق، وتكية المدينة، أو تكية الخاصكيّة القديمة[2].

أما الزوايا في العهد المملوكي فهي من المؤسَّسات التي أسهمت في الحياة العلمية، وقام العلماء المصريون بالتدريس فيها. ومنها: زاوية السيد أحمد البدوي في مكّة، وأديرت بها الدروس العلميّة الحافلة، وزاوية المتّقي الذي رحل من الهند إلى الحجاز في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، وأنشأها، وقد قام بالتدريس فيها العديد من المصريين، منهم الشيخ السخاوي وغيره من العلماء المصريين[3].

وكان الهدف الأساس لإنشاء الأربطة المملوكيّة في الحجاز تسهيل المجاورة في الحرمين، خصوصًا لغير القادرين من الفقراء الأيتام، وللصوفيّة الذين كانوا يحصلون على أجر مقابل مجاورتهم وسكنهم، وتلقيهم العلم فيها، فقد كان لكل صوفي في الرباط راتب معيّن يحصل عليه مقابل عمل يؤديه. وأغلبيّة أربطة الحجاز ملحقةٌ بالمدارس، ويبيت فيها الصوفيّون مع الطلاب. أما الأربطة الأخرى فكانت تخصّ الصوفيّة دون غيرهم، وكانت

(١) أثر الوقف الإسلامي على الحياة العلمية بالمدينة، سحر الصديقي (ص: ١٢٢-١٢٣، ١٢٥).

(٢) انظر: دور مصر في الحياة العلميّة في الحجاز، محمد بيومي (ص: ٢٣٨-٢٣٩).

(٣) انظر: دور مصر في الحياة العلميّة في الحجاز، محمد بيومي (ص: ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٤٧).

تعقد بها الحلقات العلميّة[١].

أعلام الصوفية في مكة والمدينة:

من نظر في كتب التراجم التي صنفت في القرن التاسع الهجري المتعلّقة بأعلام الحرمين كـ«العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» لتقي الدين الفاسي (ت ٨٣٢هـ)، و«الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» لعمر بن فهد (ت ٨٨٥هـ)، و«التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة» للسخاوي (ت ٩٠٢هـ)، **يجد أن تراجم الصوفية في الحرمين الشريفين المذكورين في هذه الكتب الثلاثة تقارب المئة**، وهذه التراجم إلى العهد المملوكي فقط، فقد عاش المؤلفون الثلاثة في العهد المملوكي، ولم يدركوا العهد العثماني. ولولا خشية الإطالة في البحث لسردنا جميع التراجم هنا، ولكن حسبنا الإشارة إلى المراجع التي يمكن الرجوع إليها؛ لاستخراج تراجم الصوفية في الحجاز قبل العهد العثماني.

من مدارس الصوفية في مكة في عهد المماليك:

قال ابن فهد: "وفي سنة خمس وثلاثين وثمانمائة (٨٣٥هـ) أنشأ الطواشي خوشقدم الزمام مدرسة بالجانب الشمالي من المسجد الحرام، وقرر لها شيخًا وعشرة من الصوفية يجتمعون ويقرؤون بعد صلاة العصر، ويهدون ثواب ذلك في صحيفته، وجعل بها صهريجًا يجتمع فيه الماء من سطح المسجد الحرام، وجعل بها خلاوي يسكنها الفقراء، وأوقف عليها وقفًا جليلًا، وهو الربع الذي بالمسعى، ويُعرف بربع التوريزي شاه بندر جدة لتوليه عمارته"[٢].

وفي "إتحاف فضلاء الزمن": "وفي سنة ثمانمائة واثنتين وثمانين (٨٨٢هـ) أمر السلطان قايتباي وكيله وتاجره الخواجا شمس الدين محمد بن عمر الشهير بالزمن وشادّ عمائره الأمير سنقر الجمالي أن يحصل له موضعًا مشرفًا على الحرم ليبني له مدرسة يدرّس فيها علماء المذاهب الأربعة، ورباطًا [يسكنه] الفقراء، ويعمر له ربوعًا ومسقفات يحصل منها ريع كثير، يقسم منه على المدرّسين وعلى الفقراء، وأن تقرأ له رَبْعَة[٣] في كل يوم يحضرها القضاة الأربعة والمتصوفون، ويقرر لهم وظائف، ويعمل مكتبًا للأيتام، وغير ذلك من

---

(١) الرحلة الحجازيّة، البتنوني (ص: ٣٥١).

(٢) إتحاف الورى (٤/ ٦٤).

(٣) الربعة أي: المصحف الشريف، حيث كانوا يقسمونه إلى ثلاثين جزءًا، يطبع كل جزء منها منفردًا، ومجموع هذه الأجزاء كانوا يطلقون عليها اسم ربعة. تاريخ مكة للسباعي (ص: ٢٩٧ -هامش-).

جهات الخير، فاستبدل له رباط السدرة ورباط المراغي -وكانا متصلين- وكان إلى جانب المراغي دار للشريفة شمسية من شرايف بني حسن، [اشتراها] منها، وهدم ذلك جميعه، وجعل فيه اثنتين وسبعين خلوة ومجمعًا كبيرًا مشرفًا على المسجد الحرام وعلى المسعى الشريف ومكتبًا ومئذنة، وصير المجمع المذكور مدرسة بناها بالرخام الملوّن والسقف المذهَّب، وقرر فيه أربعة مدرّسين على المذاهب الأربعة، وأربعين طالبًا، وأرسل خزانة كتب وقفها على طلبة العلم، وجعل مقرّها المدرسة المذكورة، وجعل لها خازنًا عيّن له مبلغًا، وقد استولت [عليها] أيدي النظار والمستعيرين، وقد ضاع [غالبها] إلا القليل، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وجعل الواقف في ذلك المجمع للقضاة الأربعة حضورًا بعد العصر مع جماعة من الفقهاء يقرؤون له ثلاثين جزءًا من القرآن العظيم"(١).

الأربطة والأوقاف الواقعة في مكة على الصوفية من العهد الفاطمي إلى عهد المماليك:

ومنها: رباط قاضي القضاة أبي بكر محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم المراغي (ت ٥٧٠هـ) الملاصق لهذا الرباط، وبابه عند باب المسجد المعروف بباب الجنائز، ويُعرف الآن بباب النبي، وفيه: أنه وقفه على الصوفية الواصلين إلى مكة المقيمين بها، المجتازين من العرب والعجم(٢).

ومنها: رباط رامشت عند باب الحزورة، ورامشت هو الشيخ أبو القاسم، واسمه: إبراهيم بن الحسين الفارسي، وقفه على جميع الصوفية الرجال دون النساء أصحاب المرقَّعة من سائر العراق، وتاريخه سنة تسع وعشرين وخمسمائة (٥٢٩هـ)(٣).

ومنها: رباط أم الخليفة الناصر العباسي، وتاريخ وقفه سنة خمسمائة وتسع وسبعين (٥٧٩هـ)، على الصوفية(٤).

ومنها: رباط الخاتون، ويعرف بابن محمود، وتاريخ وقفه سنة سبع وسبعين وخمسمائة (٥٧٧هـ)، كذا في الحجر الذي على بابه، وفيه أنه وقف على الصوفية الرجال الصالحين من العرب والعجم، وأن التي وقفته الشريفة فاطمة بنت الأمير أبي ليلى محمد بن أنوشروان

---

(١) إتحاف فضلاء الزمن (٢/ ٣٨١).

(٢) انظر: إتحاف الورى (٢/ ٥٤٢)، العقد الثمين (٢/ ٦٧).

(٣) انظر: شفاء الغرام (١/ ٦٠٩)، إتحاف الورى (٢/ ٥٠٤)، العقد الثمين (٤/ ٣٨٥).

(٤) انظر: شفاء الغرام (١/ ٦٠٨)، إتحاف الورى (٢/ ٥٥٢)، العقد الثمين (١/ ١٨٨، ٨/ ٢٣٨).

الحسني[١].

ومنها: الرباط المعروف برباط الخوزي، بزيادة باب إبراهيم، وقفه الأمير قرامر بن محمد بن قرامر الأقدري الفارسي على الصوفية الغرباء والمتجردين، كذا في الحجَر الذي على بابه، قال الفاسي: وتاريخه فيما أظن سنة سبع عشرة وستمائة (٦١٧هـ).

ومنها: رباط يعرف برباط بنت التاج، قال الفاسي: ولا أعرف واقفه في الابتداء، وله أزيد من مائتي سنة، وعلى بابه حجر مكتوب فيه أنه وقف على النساء الصوفيات الأخيار والمجاورات[٢].

ومنها: رباط الدمشقية، وقف على الصوفية والعلماء والقراء والفقراء من أهل دمشق والعراقيين العرب والعجم، في رجب سنة تسع وعشرين وخمسمائة (٥٢٩هـ)[٣].

ومنها: رباطان قرب الموضع الذي يقال له الدريبة: أحدهما يعرف برباط ابن السوداء لسكناه به، وعلى بابه حجر مكتوب فيه: أن أم خليل خديجة وأم عيسى مريم ابنتي القائد أبي ثامر المبارك بن عبد الله القاسمي وقفتاه على الصوفيات المتدينات الخاليات من الأزواج، الشافعيات المذهب، في العشر الأول من شهر ربيع الأول سنة (٥٩٠هـ)، ويقال له أيضا: رباط الهرّيش بتشديد الراء. والآخر يعرف بابن غنايم، وعلى بابه حجر مكتوب فيه ما معناه: وقفه السلطان الملك العادل ملك الجبال والثغور والهند محمد بن أبي على، على الصوفية الرجال العرب والعجم، على أن يكون عدد الساكنين فيه عشرة لا غير، سواء كانوا مجاورين أو مجتازين، وبعضهم مقيم وبعضهم مجتاز، وذلك سنة ستمائة (٦٠٠هـ)[٤].

رابعًا: عودَة إلى كلام المؤلّف:

نعود إلى المؤلف لنرى ماذا يقول عن مظاهر التصوّف في الحجاز في العهد العثماني، ونعلق عليه:

تحدَّث المؤلف (ص: ٥٦) عن الحجاز في العهد العثماني، وذكر أن في جدة قبةً على القبر المنسوب لحواء عليها السلام، وذكر أن من مظاهر التصوف في القبور في مكة القبابَ؛

(١) انظر: شفاء الغرام (١/ ٤٣١).

(٢) انظر: شفاء الغرام (١/ ٤٣٦).

(٣) انظر: شفاء الغرام (١/ ٤٣٦)، إتحاف الورى (٢/ ٥٧٠).

(٤) انظر: شفاء الغرام (١/ ٤٣٧).

كما في مقبرة آمنة وعبد المطلب وأبي طالب.

كما ذكر أن أهل مكة اتخذوا قبر عبد الله بن عمر مزارًا، وكانوا يذهبون ليلة ١١ من كل شهر عند قبر خديجة رضي الله عنها ويقرؤون القرآن.

ومن المظاهر: الاحتفال بالمولد النبوي، وكان يحضره حاكم الحجاز، والاحتفال بليلة الإسراء والمعراج.

وكذا اتخاذ بعض الدور والجبال مزارًا.

وفي الحقيقة كثيرٌ من الأمور التي ذكرها المؤلّف عن الحجاز مذكورةٌ قبل العهد العثماني.

فعلى سبيل المثال: قبر خديجة رضي الله عنها يكفي أن نعرف أن قصةَ اكتشافه أقرب إلى الأساطير، وذلك بعد أن رأى أحدُ العارفين في المنام كأنَّ نورًا ينبعث من شعبة النور في مقبرة المعلاة، ولَمَّا علم أمير مكة في ذلك العهد بخبر تلك الرؤيا أمرَ ببناء قبَّة فوق المكان الذي رأى ذلك العارف أن النورَ ينبعث منه، جازمًا ذلك الأمير أن ذلك المكان ما هو سوى قبر خديجة رضي الله عنها، ويورد المرجاني (ت ٧٧٠هـ) في كتاب "بهجة النفوس والأسرار" الخبر باختصار ويعقب عليه: "ولا كان ينبغي تعيينه على الأمر المجهول"[١].

فها هي القبة تبنى فوق هذا القبر، وهذا قبل العهد العثماني بكثير.

وكذا القبة فوق القبر المنسوب لحواء في جدة:

قال ابن جبير في رحلته: "وبهذه القرية -يعني: جدة- آثار قديمة تدلُّ على أنها كانت مدينة قديمة، وأثر سورها المحدق بها باقٍ إلى اليوم، وبها موضع فيه قبَّة مشيّدة عتيقة، يُذكر أنه كان منزل حواء أمّ البشر -صلَّى الله عليها- عند توجهها إلى مكة"[٢].

وقد عقَّب الفاسي (ت ٨٣٢هـ) على ما ذكره ابن جبير بقوله: "لعلَّ هذا الموضع هو الذي يُقال له: قبر حواء، وهو مكانٌ مشهورٌ بجُدَّة، إذ لا مانع من أن تكون نزلت فيه، ودُفنت فيه، والله أعلم. وأستبعدُ أن يكونَ قبر حواء في الموضع المشار إليه؛ لكون ابن جبير لم

---

(١) انظر: البحر العميق (١/ ١٥٩-١٦٠)، الآثار الإسلامية في مكة المشرفة، لحمد الجاسر، محاضرة في (جامعة أم القرى) بمكة بعد مغرب ليلة الأربعاء ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٤٠٢هـ، ثم نشرها كبحث في مجلة العرب (س ١٧ ج ٣-٤).

(٢) رحلة ابن جبير (٢/ ٥٣).

يذكره، وما ذاك إلا لخفائه عليه"[١].

وبهذا يتبين أن ابن جبير وابن بطوطة[٢] تحدَّثا عن وجود قبة مشيّدة عتيقة، يقال: إنها كانت منزلًا لحواء أم البشر عند توجّهها إلى مكة، فبنيت تلك القبة عليه تبركًا به، ولم يذكرا شيئًا عن القبر نفسه.

أما ابن المجاور فيذكر أن حواء مدفونة بظاهر جدّة، وأن الفرس بنوا عليها ضريحًا بالآجر والجصّ، فبقي هذا الضريح إلى سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م، وفي تلك السنة تهدم وارتدم بعضه على بعض[٣].

مناقشة استدلال المؤلف بابن بطوطة:

قال المؤلّف: "ولعل من الشواهد أيضًا أن ابن بطوطة (ت ٧٧٩ه) لما زار الحجاز في القرن الثامن وجاور فيها لم يذكر المشاهد والأضرحة والقباب والموالد، ولم يشر إليها بأدنى إشارة؛ مما يدل على أنها حدثت بعد ذلك، أو كانت موجودة، لكنها لم تكن ظاهرة"[٤].

وفي الحقيقة رحلة ابن بطوطة ليست مرجعية في تاريخ مكة؛ لأنها رحلة شاملة، فقد زار الأقطار الإسلاميّة وغيرها من بلاد الشرق في عهده، واستغرق في رحلته قرابة ثلاثة عقود. وأدى فريضة الحج للمرة الأولى سنة ٧٢٦هـ، وللثانية سنة ٧٢٧هـ، وجاور بمكة ثلاث سنوات (٧٢٨هـ - ٧٢٩هـ -٧٣٠هـ)، ولم يحجّ في السنة الأخيرة، ثم حجّ للمرة الخامسة سنة ٧٣٢هـ، والمرة السادسة والأخيرة سنة ٧٤٩هـ، ويلاحظ أنَّ بعض المؤرخين اعتبروا حجّته سنة ٧٣٠هـ، فيكون بذلك عدد حججه سبع حجات، إلا أن كتابته عن مكة لا تستغرق عُشر الكتاب، فهي قليلة جدًّا.

وتعدّ هذه الرحلة من أشهر الرحلات، وقد ترجمت إلى عدة لغات، إلا أنها تحمل نَفَس التَّصَوُّف، والتبرك الممنوع بالصالحين والقبور واتخاذها مزارات ومشاهد، وهي مليئة بالأكاذيب والخرافات، والمنامات والقصص التي لا تخلو من نظر، ونقلت الكثير من البدع والمخالفات في مكة وغيرها دون التحذير منها والتنبيه.

---

(١) شفاء الغرام (١/ ١١٩).

(٢) رحلة ابن بطوطة (ص: ٢٤٣).

(٣) صفة بلاد اليمن (ص: ٤٣)، مؤرخو جدة، حمد الجاسر (ص: ١٩٥-١٩٦).

(٤) حركة التصوف في الخليج العربي (ص: ٦٩).

ولكي يتبيَّن هل مظاهر التصـوف كانت في الحجاز أم لا، فلننظر في رحلة العبدري المسماة بـ«**الرحلة المغربية**»، وهو من أهل القرن السابع، حج سنة (٦٨٩هـ-١٢٩٠م).

فقد ذكر القِباب على القبور لما تحدَّث عن قبور الصّحابة والتّابعين والعلماء والصّالحين في المدينة، قال: "وعلى أكثرها مبان وقباب متقنة، ومن أشهرها وأتقنها قبّة عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وهي عالية متّسعة، محكمة العمل، رائقة المنظر، وتليها قبّة العبّاس رضي الله عنه، وفي كل قبّة وبنية بالبقيع عدّة مقابر للصّحابة وغيرهم"[1].

وختامًا: بعد هذه الجولة التاريخية المتنوّعة من عهد الفاطميين إلى عهد المماليك تبيّن لنا أن التصوفَ في الحجاز قد ضرب بأطنابه وتغلغلت جذوره قبل العهد العثماني، إلا أن فروعه قد امتدَّت خلال القرون الأربعة الأخيرة، والله الهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) رحلة العبدري (ص: ٤٢٣).